"كتاب سنيكا عن قصر الحياة"

De Brevitate Vitae

"دعوة إلى الفلسفة"

مجدى السيد أحمد كيلانى

يعتبر كتاب سنيكا عن " قصر الحياة " أحد مؤلفاته الفلسفية الهامة. وعلى عكس ما قد يوحى به عنوان الكتاب من أن الحياة قصيرة ، فإن مضمونه الفلسفى يؤكد أن الحياة ليست قصيرة وهذا بطبيعة الحال بالنسبة لفيلسوف أو حكيم ، لأنه من خلال المعرفة والقراءة يمكن أن يتعرف على الماضى كله ويمكن أن يتعلم من الحكماء على مر العصور كيف يحيا بل وكيف يموت. إن مناقشة موضوع إهدار الوقت وما يترتب على ذلك من إحساس بأن الحياة تبدو قصيرة إنما يكشف عن أفكار إيجابية تعكس أصالة خاصة بسنيكا.

وكما يظهر من السطر الأول فى الكتاب فإن سنيكا يوجه خطابه ومناقشته حول قصر الحياة إلى باولينوس Paulinus (١) الذى يكشف الكتاب فيما بعد انه كان آنذاك يتولى منصب Praefectus Annonae وهو المنصب الذى كان يتولى شاغله الإشراف على إمداد روما بالغلال ومن ثم فإنه يستمد أهميته من أهمية الوظيفة ، وكان أحد أقارب زوجة سنيكا بومبيا باولينا Pompeia Paulina. أما الكتاب فقد ألفه سنيكا فى حوالى عام ٤٩ م. (٢)

ولعل خير ما استهل به مناقشة هذا العمل الفلسفى لسنيكا هو اعلانه منذ البداية :-

Non exiguum temporis habemus, sed multum perdimus.

أى

" إن ما لدينا من وقت ليس قصيرا بل نحن الذين نضيع أكثره "

ثم تأكيده بعد ذلك مباشرة على " أن الحياة طويلة بما يسمح بإمكانية تحقيق وانجاز أعظم الأعمال إذا نحن أحسنا استثمار الوقت :-

Satis longa vita et in maximarum rerum consummationem large data est, si tota bene collocaretur.(3)

1- Seneca, De Brevitate Vitae I, 1.
2- Duff.J.W, Literary History of Rome in the silver age london 1966 p. 215.
3- Seneca, De Brevitate Vitae I, 3.

من الناحية الأدبية يعلق دف Duff بأنه لابد من الأدب كله افضل من اشارات سنيكا وتحليلاته حول قيمة الوقت (١) بينما يرى البعض أن السخرية هى أفضل ما جاء فى اشارات سنيكا إلى قيمة الوقت. (٢) ولكن ما ينبغى أن أضيفه إلى هذه الأراء هو أن اشارات سنيكا إلى قيمة الوقت ونصائحه باستثماره فيما ينفع وفيما يحقق اعظم الأثر هى اشارات فلسفية قلما وجدناها فى كتابات أخرى. والأهم من ذلك هو أن الكتاب كله بمثابه دعوة إلى الفلسفة كما سأحاول اثباته فى هذه الدراسة ، فهى الشئ الوحيد الذى ينبغى للانسان التفرغ له. انه لا سبيل غير الفلسفة حتى يتمكن الانسان من معرفة الماضى والاستفادة منه عن طريق الاتصال بالحكماء الذين عاشوا فى العصور الماضية وساهموا فى نهضتها منذ فجر التاريخ. إن تواصل الحكمة على مر العصور هو الطريق الصحيح إلى الخلود. لذلك تقاس قيمة الوقت كما سيظهر من تحليل سنيكا له بمقدار ما يساهم به الانسان فى تواصل هذه الحكمة. لذلك يصف بيير جريمال Pierre Grimal الكتاب بأنه دعوة إلى الفلسفة أو حث على اللجوء إليها exhortatio ad philosophiam.(٣)

كانت مناقشة سنيكا لقيمة الوقت وتأكيده على أن الحياة ليست قصيرة لكننا نحن الذين نجعلها كذلك باهدارنا للوقت تمهيدا طويلا ولكنه ضرورى للنصيحة – أو قل المفاجأة – التى فاجانا بها على هذا النحو من الجرأة عندما نصح باولينوس بالاستقالة والتفرغ للمعرفة قائلا :–

Maior pars aetatis, Certe melior rei publicae data sit; aliquid temporis tui sume etiam tibi. Nec te ad segnem aut inertem quietem voco, non ut somno et caris Turbae voluptatibus quid quid est in te indolis vividae mergas.

1- Duff. J. W., A literary History of Rome in the silver age london 1966 p. 216.
2- Motto A.L. and clark J. "Satire in Seneca's De Brevitate Vitae", L'Antiquite' classique Bruxelles 1994, pp. 161-171
3- Grimal p., Introduction to L'Annaei Senecae, De Brevitate vitae, Paris 1959 pp 5-13

.... Sed tamen, mibi crede, [illegible] est vitae suae rationem quam frumenti publici nosse.

Istum animi vigorem rerum maximarum [illegible]issimum a ministerio honorifico quidem sed parum ad beatam vitam apto re[illegible]t cogita non id egisse te ab aetate prim a omni cultu studiorum liberalium.(1)

ـ :

" قدمت الجزء الأكبر من عمرك وهو الأحسن بالتأكيد للدولة ، فلتخصص جزءا من وقتك (عمرك) لنفسك ايضا ، وأنا لا ادعوك إلى سكينة ملؤها الكسل أو الخمول ، كما لا ادعوك أن تنغمس بكل طاقاتك الحيوية فى اللذات العزيزة على عامة الناس " .....

" بل صدقنى إن اهتمامك بالعقل او معرفتك به افضل من اهتمامك بسوق القمح أو معرفتك به. ولتوجه عقلك حاد الذكاء والذى يعمل بأعلى كفاءة فى أهم الأمور من هذه الخدمة وهى جد شريفة لكنها لا تؤدى إلى حياة سعيدة إلى ممارسة الدراسات الحرة ."

كانت هذه هى الأسباب التى ضمنها سنيكا نصيحته إلى باولينوس بالاستقالة من وظيفته والتفرغ للاطلاع والدراسة. وفى الواقع فإن نصائح سنيكا إلى باولينوس لا تخلو من مبادئ فلسفية هامة يمكن إستخلاصها من الفقرتين السابقتين على النحو التالى :-

اولا:- الحث على المعرفة بوصفها خير الوسائل المؤدية إلى السعادة. ولا يختلف سنيكا فى هذا الشأن عن فلاسفة اليونان الكبار سقراط وافلاطون وارسطو. فسقراط يرى أنه إذا اردنا أن نكون سعداء فإن كل ما يجب أن نفعله هو ألا نهدف إلى شئ سوى الحكمة.(٢)

وذهب كذلك إلى أن السعادة تكمن فى اسمى الفضائل وهى الحكمة.(٣)

1- Seneca, De Brevitate vitae, XVIII, 1-4.

2- Plato, Euthydemus 281 d-e.

3- Plato, Euthydemus 279 FF, Gorgias 478 FF and symposium 202 C.

وحول أهمية المعرفة وعلاقتها الوثيقة بالسعادة فى فلسفة سقراط راجع :-

Santas, G., Socratic Goods and socratic Happiness (Virtue, love, Form - 1994) pp. 37-52

أما ارسطو فعندما اختار أن يكون معيار السعادة الثروة أو اللذة أو الشرف ، الثروة لأنها معرضة للضياع فى أى وقت لسبب او لاخر ، واللذة لأنها لا تمنح إلا سعادة مؤقته والشرف لأن المناصب كما تمنح تنتزع. وأنتهى إلى التأكيد على أن معيار السعادة الأول هو التأمل والتفكير ومن ثم المعرفة.(١)

وسنيكا كما يوضح النص إذ يدعو باولينوس إلى تخصيص جانبا من عمره للقراءة والدراسة ويكفى ما قدمه من خدمات فى إطار أدائه وظيفته الهامة إنما يدعوه إلى غاية طالما اهتمت بها فلسفة الاخلاق وهى الحياة السعيدة Beata vita.

ثانيا:- يتمسك سنيكا-كما يوضح النص بالمبادئ الرواقية. وجدير بالذكر انه أحد أقطاب الرواقية فى مرحلتها الثالثة والأخيرة مع ابكتيتوس وماركوس أو ريليوس. فرغم انه ينصح باولينوس باعتزال الوظيفه ومن ثم اعتزال الحياة العامة ، فإنه لا يدعو مثل الابيقوريين-إلى الطمأنينة على حساب عدم المشاركة فى العمل السياسى. وربما تدارك هو نفسه هذا الأمر فبادر يوضح لباولينوس أنه لا يدعوه إلى سكينة تقوم على الانغماس فى اللذه Voluptas التى يعشقها عامة الناس ، بل يدعوه إلى سكينه لا تتأتى إلا إذا استخدم عقله وذكاءه الحاد فى شئ اسمى واهم من القمح Frumentum وهو الدراسة التى تتيح له التأمل فى الحياة وهذه أفضل طريقة لاستغلال الفراغ Otium " لأننا دائما ننشد الفراغ ولكننا لا ننعم به " :-

Otium nunquam agetur, semper optabitur.(2)

وجدير بالذكر أن سنيكا كان موفقا فى استخدام اللغة التى تناسب تخصص باولينوس وهو الاقتصاد وما يحتويه من محاسبة وتوزيع وتخزين وعرض وطلب وما إلى ذلك بما يتفق مع رؤيته للحياة Vita والوقت Tempus والعمر Aetas ، حيث يرى مثلا أن العمر يجب أن

1- Aristotle, Nicomachean Ethics,
2- Seneca, De Brevitate Vitae, XVII, 6

يخضع للتوزيع (divitur) والاستثمار (collocaretur) ولا ينبغى بأى حال أستهلاكه consummatio فى الترف والاهمال Per luxum ac neglegentiam.(١)

العمر الحقيقى هو الانجاز

ولكن ما هو الانجاز ؟

يفترض سنيكا أنه يقابل رجلا بلغ من العمر مائه عام ويطلب إليه أن يحقق سنوات عمره كلها حسابيا وذلك بالنظر فى مقدار ماضاع من وقت من هذه السنوات الطويلة. فأخذ يسأل الرجل عن الوقت الذى ضاع فى ابرام الصفقات والذى تبدد فى ممارسة الحب بانواعه والوقت الذى ضاع فى نزاعات اسرية وخلافات شخصية أو الذى انقضى فى اداء الواجبات الاجتماعية والوقت الذى اهدر فى ندم لا يفيد أو نشوة خادعة وما إلى ذلك مما يسرق الوقت ، فكانت نتيجة هذه الحسبة أن هذا الرجل لا يستحق ابدا أن يدخل فى عداد من بلغوا المائه. لاننا إذا حسبنا الوقت الذى أهدره فى هذه الأمور وما شابهها فلن يتجاوز عمره الحقيقى عمر طفل صغير. وأرى أن أقتبس الفقرة التى تتضمن هذه الفكرة واقوم بترجمتها محاولا الاستفادة منها فى تحديد الانجاز الذى يعنيه سنيكا كمعيار للعمر الحقيقى.

Libet itaque ex seniorum turba comprendere aliquem :

" Pervenisse te ad ultimum aetatis humanae videmus, centesimus tibi vel supra premitur annus; agedum, ad computationem aetatem tuam revoca. Duc, quantum ex isto tempore creditor, quantum amica, quantum rex, quantum cliens abstulerit, quantum lis uxoria, quantum servorum coercitio, quantum officiosa per urbem discursatio.

1- Seneca, De Brevitate vitae, I,3-X, 2-4

وحول مزيد من المصطلحات الاقتصادية التى يستخدمها سنيكا دون تصنع أو افتعال فيما له علاقة بالعمر راجع أيضا :- III, 2-3-5

Adice morbos, quos manu fecimus adice et quod sine usu iacuit; videbis te pauciores annos habere quam numeras. Repete memoria tecum quando certus consilii fueris, quotus quisque dies ut destinaveras processerit, quando tibi usus tui fuerit, quando in statu suo vultus, quando animus interpidus, quid tibi in tam longo aero facti operis sit, quam multi vitam tuam diripuerint te non sentiente quid perderes, quantum vanus dolor, stulta, laetitia, avida cupiditas, blanda conservatio abstulerit, quam exiguum (1) tibi de tuo relictum sit; intelleges te immaturum mori

أى :-

" ربما كان من اللائق أن استفهم من شخص ما من زمرة المسنين على النحو التالى :-

تراك وقد اشتعل رأسك شيبا وبلغت من العمر ارذله ، فهل أنت تناهز المائه وربما تعديتها. تعالى الآن واسترجع عمرك بعملية حسابية. كم من وقت قضيته مع مستثمر (ضامن) ، وكم اضعت منه مع صديقة (عشيقه) وكم استهلكت من وقت مع أحد العملاء وكم أهدرت من وقت فى خلاف مع زوجتك وكم بددت منه فى توجيه اللوم إلى خدمك وكم افنيت من وقت تجوب المدينة من أجل أداء واجبات اجتماعية. أضف إلى هذا الكوارث التى نقترف بايدينا والوقت الذى يهدر دون فائدة (استغلال) ، سترى أن سنوات عمرك أقل مما تحسب.

ولتعد بذاكرتك لتنظر متى كانت لك خطة محددة ، وكم كانت قليلة تلك الأيام التى مرت على نحو ما قصدت (أو خططت) ،

ومتى علت وجهك حالته (تعبيراته) الطبيعية ، ومتى لم يكن ذهنك مثقلا بالهموم ولتنظر أى عمل أنجزت فى مثل هذه الحياة الطويلة وكم فقدت من وقت دون أن تدرى بما كنت تفقده ، كم تألمت دون داع وانتشيت نشوة بلهاء وتعطشت لمزيد من الرغبة ، وكم أهلكت من وقت فى اللغو ، كم إذن تبقى لك (احسب كل ذلك) ستدرك انك تموت قبل أوانك "

1- Seneca, Brevit. Vit. III, 2-3

بهذه العملية الحسابية computatio توصل سنيكا إلى النتيجة التالية :-

أن العمر الحقيقى لمثل هذا الرجل البالغ من العمر مائـه عاما او يزيـد لا تتجـاوز عمـر صبى صغير ومن ثم فإنه إذا مات وهو فى هذا السن المتقدم وهو قاب قوسين او أدنى مـن المـوت بحكم هذا العمر فإنه سيموت قبل أن يكون قد وصل إلى مرحلة النضج التى هى غاية الحياة لأن الانسان إذا فات عمره دون أن يدرى ومن ثم دون أن ينضج صدق فيه قول سـنيكا أنـه لم يحيـا عمرا طويلا بل فقط طال زمن وجوده (١) وحتى يشعر الانسان بعمـره الحقيقـى وحتـى يصـل إلى مرحلة النضج الضرورية عليه أن ينعم بالفراغ-أو أقل التفرغ- Otium ولا يصل إلى هذه النعمـة فى رأى سنيكا إلا الحكيم. لذلك يكرر سنيكا ان الاتصال بحكماء المـاضى وفلاسـفته علـى وجـه الخصوص وقراءة مذاهبهم والتأثر بهم هو افضل ما يجب على انسان ان يتفرغ له. الفلسـفة هـى الحل إذن وهى الغاية ، اذ يمكن كما ينصح سنيكا أن :-

Disputare cum Socrate licet, dubitare cum Carneade, cum Epicuro quiescere, hominis naturam cum Stoicis vincere, cum Cynicis excedere(2)

" تحاور سقراط ويمكن ان تشك مع كارنياديس (٣) وأن تنعم بالسكينة (٤) مع أبيقـور. ويمكن أن تتغلب على الطبيعة البشرية مع الرواقيين ويمكن أن تتجاوزها مع الكلبيين "

هذه الإتجاهات الفلسفية تحتاج إلى وقفه من الانسان فلمـاذا لا يتفـرغ لدراسـتها بعـض الوقت بدلا من أن يضيع كل الوقت فى أمور أخرى كثيرة لا طائل من ورائها ؟

1- Seneca , De Brevitate vitae VII, 10 :
non ille diu vixit, sed diu fuit.

2- Seneca, Brevit. Vit. XIV, 2.

(٣) حيث كانت الاكاديمية الجديدة تنادى بمبدأ أن اليقين فى المعرفة لا يمكن بلوغه.

(٤) لكنها السكينة القائمة على اللذة حسبما رآها أبيقور.

هذا هو ما يريده سنيكا بالضبط. أنه يدعو إلى أن نسلم عقولنا إلى مذاهب الماضى :

Quae immensa, quae aeterna sunt, quae cum melioribus communia ... (1)

" فهو هائل وخالد ونشترك فيه مع من هم أفضل منا "

– إلى هذا الحد يقدس سنيكا الفلسفة وإلى هذا الحد يرى أن الاتصال بالفلاسفة على اختلاف مذاهبهم هو الانجاز الذى يمكن أن يخرج به الانسان من هذه الحياة. إنه الانجاز الذى عز على فئات كثيرة من الناس وأخصهم العظماء. إن سنيكا ليندهش من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يحيون ولا كيف ينعمون بالحياة. انهم فقط يعبدون العمل ولا يعرفون كيف يكتفون بما هو كفاية ولا يعرفون متى يتوقفون ليمنحوا أنفسهم فرصة للتفرغ لأنفسهم ويضرب سنيكا أمثلة على هؤلاء الناس من التاريخ الرومانى وأهمهم الامبراطور اوغسطس Augustus وشيشرون Cicero وليفيوس دروسوس livius Drusus

فهذا أوغسطس الامبراطور المؤله Divus Augustus الذى أنعمت عليه الآلهة بما لم تنعم به على بشر لم يكف عن الدعاء بالراحة والسعى إلى الحصول على اجازة من العمل العام (السياسة) :

Non desit quietem sibi precari et vacationem a re publica petere.(٢)

أنه لم يكف فى احاديثه فى كل مجلس عن التطرق إلى هذا الموضوع وعن إعرابه عن أمله فى بعض الفراغ Otium. ويقتبس سنيكا كلمات اوغسطس نفسه إلى مجلس السناتو والتى يقول فيها :

"Sed ista fieri speciosius quam promitti possunt.

Me tamen cupido temporis optatissimi mihi provexit, ut quoniam rerum

---

1- Seneca, Brevit. Vit. XIV, 2.

2- Ibid III, 2.

laetitia moratur adhuc, praeciperem aliquid voluptatis ex verborum dulcedine(1)

أى :-

" لكن هذه الأمور يمكن أن تكون افضل بالأفعال وليس بالوعود ، ومع ذلك وما دام الواقع الجميل (السعيد) لا يزال بعيد المنال ، فإن رغبتى فى هذا التفرغ والتى أدعو بصدق شديد أن تتحقق تمنحنى بعض السعادة لمجرد التلذذ بالكلمات "

إلى هذه الدرجة كان الفراغ Otium عزيزا على أوغسطس حتى أنه يحاول أن يستمتع به فى خياله طالما أنه لا يستطيع تحقيقه فى الواقع. هذا الرجل الذى رأى أن كل شئ يعتمد عليه وحده وانه هو الذى قرر مصائر البشر والأمم يتخيل فى سعادة بالغة اليوم الذى يستريح فيه ويتنازل فيه عن عظمته

quo magnitudinem suam exueret. (2)

كأنما يريد سنيكا أن يقول أن اوغسطس لم ينعم بهذا اليوم إلا فى مخيلته لأنه لم يشأ ان يضحى بمجده وسلطانه من أجل التفرغ لنفسه بعض الوقت. فبعد أن يعدد سنيكا اعمال اوغسطس وإنتصاراته فى مقدونيا وصقلية ومصر وسوريا واسيا وفتوحاته التى وصلت إلى ما وراء الراين والفرات والدانوب والسلام الذى نشره فى ربوع البلاد ، يتحسر على أوغسطس -كأنه فى الواقع ينتقد اسلوب حياته عندما يقول :-

Hoc votum erat eius, qui voti compotes facere poterat. (٣)

" كانت هذه هى دعوة هذا الرجل الذى كان فى مقدوره أن يلبى دعوات كل البشر "

---

1. Seneca, De Brevitate Vitae, III, 2-3
2- Ibid IV, 4
3- Ibid IV, 5

وهذا ماركوس شيشرون Marcus Cicero الذى وضع القدر فى طريقة كاتلينا وكلوديوس وبومبيوس وكراسوس. ومن هؤلاء من كان يناصبه العداء صراحة وعلى الملأ ومنهم من كان يصادقه ولكن صداقة مريبة او لا تخلو من الشكوك. كم صب لعناته على الفترة التى عمل فيها قنصلا وكم امتزجت كلماته بالدموع وهو يكتب إحدى رسائله إلى اتيكوس عندما هزم بومبيوس الاكبر وكان ابنه لا يزال يحاول استعادة ولم ما تبعثر من قواته وسلاحه فى اسبانيا. ويقتبس سنيكا كلمات شيشرون إلى اتيكوس منتقيا اكثرها تأثرا وحزنا :

" Quid agam, hic quaeris ? Moror in Tusculano meo semiliber." (1)

" تسألنى ماذا أفعل هنا ؟ أعيش فى فيلتى التوسكولانية نصف سجين "

ثم أخذ شيشرون يبكى حياته الماضيه ويشكو من الحاضر ويعلن يأسه من المستقبل. فأخذ عليه سنيكا عبارته التى يقول فيها أنه يعيش شبه سجين وأقسم بأن الحكيم sapiens ما ينبغى له أن يقول ذلك أبدا وما ينبغى له ان ينطق بهذه الصفة المبتذلة لأن الحكيم لا يكون ابدا نصف سجين بأى حال :

... " nunquam sapiens in tam humile nomen procedet, nunquam semiliber erit. "(2)

وهكذا يعود سنيكا مرة ثانية إلى الفلسفة كأفضل الحلول للأزمات التى يمر بها الانسان فى حياته وما أكثرها. ويأخذ على شيشرون انه لم يلجأ إلى الفلسفة بدلا من أن يستخدم تلك الصفة التى لا تليق بحكيم لينعى حاله : خاصة وأن من أهم صفات الحكيم هو أنه حر بل – كما يقول سنيكا – أنه يملك حرية قوية ثابتة لا تتأثر بالاحداث وانه سيد نفسه علاوة على أنه

1- Seneca, De Brevitate Vitae V, 2.
2- Ibid V, 3.

مع ملاحظة أن اللفظ Semiliber يعنى حرفيا " نصف حر "

أسمى من كل الآخرين altior ceteris (١) فكيف لا يكون أكثرهم حرية ، وعلى ذلك كيف يسمح شيشرون لنفسه بالشكوى والبكاء واليأس ويصف نفسه بأنه شبه سجين Semiliber ؟

والمثال الثالث الذى يستمده سنيكا من التاريخ هو ليفيوس دورسوس(٢) Livius Dursus وهو رجل شجاع ونشيط على حد وصف سنيكا والذى حظى بتأييد الجماهير العريضة فى انحاء ايطاليا كلها نتيجة لمقترحاته بسن قوانين جديدة. ويقال ان هذا الرجل أيضا شكا مر الشكوى من الحياة التى لا راحة فيها inquieta vita وقال أنه الوحيد الذى لم يحصل على اجازة أو راحة منذ كان صبيا صغيرا. (٣) وقد اثارت هذه الشكوى سنيكا الذى رد على دورسوس قائلا بأنه فات الأوان على أن يشكو بأنه لم يحصل على راحة طالما كان منذ صباه الأول مثيرا للمتاعب والقلق فى السوق الرومانى. (٤)

هذه الفئة من الناس يشترك أفرادها فى أنهم عملوا بأكثر من طاقتهم ولم يجدوا وقتا يلتقطون فيه انفاسهم وكانوا رغم ذلك يتطلعون شوقا إلى اعتزال العمل والخلود إلى بعض الراحة ولكنهم لم يحققوا ما تمنوا لأنهم كانوا أشبه بعبيد للمجد والشهرة والترف يعانون مما يصفه سنيكا بألوان التعاسة الشرقية Honestae miseriae حتى لتجدن الرجل منهم يصيح دائما الصيحة المشهورة أريد أن أعيش لانه يدرك أن العمل يأخذ كل وقته ولا يسمح له بالعيش : (Vivere mihi non licet) (5)

تصحيح الاعتقاد الخاطئ حول الفراغ :-

ينتقل سنيكا إلى تصحيح الاعتقاد الشائع حول مفهوم الفراغ Otium عندما يرفض أن يكون الفراغ هو البحث عن اللذات واشباع الرغبات كما يرفض أن يكون الفراغ هو الاهتمام

1- Seneca, De Brevitate Vitae V, 3.

(٢) كان تربيونا فى سنه ٩١ ق.م وهو صاحب اقتراح قانون القمح ومنح المواطنة الرومانية إلى الايطاليين.

3- Seneca, De Brevitate Vitae VI, 1.

4- Ibid VI, 2.

5- Ibid VII, 6.

بتوافه الأمور. والذين يفهمون الفراغ لا ينعمون بالفراغ كما ينبغى رغم أنهم يشغلون انفسهم باشياء معينة. وسأبحث الآن على هذا النحو موقف سنيكا من هؤلاء الذين ينشدون الفراغ للذة ثم بعد ذلك موقفه من هؤلاء الذين ينشدونه للتفاهات. ثم فيم يجب أن ينشد الفراغ.

أما الذين ينشدون الفراغ للذة فإن سنيكا يرفض اسلوبهم فى الحياة رفضا باتا ، وهؤلاء يمثلون قطاعا كبيرا من المجتمع ويعتبرهم سنيكا أسوأ الناس لأنه لا وقت لديهم إلا للخمر واشباع الرغبات الجنسية ويقول عنهم :-

qui nulli rei nisi vino ac libidini vacant.(1)

أى :-

" أنهم لا يتفرغون لشئ غير الخمر والجنس "

وقد اطلق عليهم سنيكا صفة Occupati وتعنى المشغولين وهو يقصد طبعا المشغولين باللهو والانغماس فى اللذة بحيث لا يكون فى إمكانهم تخصيص شئ من العمر للتأمل ودراسة الحكمة كما وردت فى تاريخ الفلسفة القديمة. وفى موضع آخر من الكتاب يقول سنيكا عن هؤلاء انهم لا يهتمون إلا بالثروة والمنصب واللذة

Cum divitiis officiis voluptatibus renuntiassent.(2)

ويظل هدفهم على مدى العمر كله هو أن يعرفوا كيف يحيون أو كيف تكون الحياة ولكنهم للأسف يتركون الحياة دون أن يعرفوا ذلك ، وهم فى الواقع يدفعون الحياة ثمنا لانشغالهم الشديد فى اهتمامات وأنشطة خاصة بهم. ورغم قضاء العمر فى الترف واللذة والمناصب الشرفية مما قد تبدو للناس أسبابا للسعادة يوجه سنيكا النصيحة إلى باولينوس أن " لا تحسدهم "ne invideris" إذا كانوا قد تركوا أسماء رنانة أو حققوا شهرة ملأت الدنيا ، لأنهم

1- Seneca, De Brevitate Vitae VII, 1.
2- Ibid VII, 4.

لم يتعلموا شيئا فى الحياة ولم يتركوا فيها إلا اسماء على شواهد القبور.(١)

وماذا تكون النتيجة ؟

النتيجة أن حياة هؤلاء تذهب دون طائل وتنتهى إلى لا شئ ، وكما لا يهم مقدار الماء الذى تصبه فى الإناء إذا كان هذا الإناء لاقاع له كذلك الوقت Tempus لا يهم مقدار ما لديهم منه لإنه إذا لم يكن ثمة ما يحكمه فإنه يتسرب دون أن ينتفع به العقل أو تسمو به النفس. (٢)

واما الذين ينشدون الفراغ لقضائه فى الاهتمام بأشياء تافهة لا طائل من ورائها فإن جوانب التفاهة عندهم تأخذ صورا كثيرة ومتنوعة. ويبدأ سنيكا حملته ضد هؤلاء باستنكار تكالب فئة منهم على التفرغ للأهتمام بجمع التحف البرونزية التى اشتهرت بها كورنثة مبددين فى ذلك أموالهم ومهدرين- وهذا هو الأدهى-جزءا كبيرا من أوقاتهم فى غير محله :

" Illum tu Otiosum vocas qui Corinthia, Paucorum furore pretosa, anxia suptilitate concinnat et maiorem dierum partem in aeruginosis lamellis consumit ? "(3)

" هل تزعم أن ينعم بالفراغ ذلك الذى يصب كل إهتماماته على جمع البرونزيات الكورنثية التى صارت باهظة الاثمان بسبب جنون البعض الذى يقضى معظم يومه بين القطع المعدنية ؟ "

ويذكر سنيكا من هذه الفئه التى لا يشغلها إلا توافه الأمور : هؤلاء الذين يجلسون وقتا طويلا للاستمتاع بمشاهدة مباراة فى المصارعة يتقاتل فيها الشباب ، وهؤلاء الذين يجعلون من

1- Seneca, De Brevitate Vitae, XX, 1.
2- Ibid, X, 5.
3- Ibid, XII, 2.

الرياضيين أبطالا يقدسونهم ، وهؤلاء الذين تأخذ المظاهر بألبابهم فيستعرضون خيولهم لا يبغون غير التظاهر بها والتفاخر بالوانها وأعمارها. (١)

ويتوقف سنيكا عند صنف من هؤلاء التافهين من الرجال والنساء على السواء حيث يستهلكون أوقاتا طويلة فى تصفيف الشعر واستخدام أدوات التجميل ويبددون أعمارهم بين يدى الحلاق لا يشغلهم سوى الاهتمام بتصفيف الشعر وتجميله ، انهم يهتمون بهذا الجانب التافه أكثر من إهتمامهم بنظام الدولة أو بما إذا كانت الدولة تنعم بالأمان أم تعج بالفوضى بل حتى أكثر من اهتمامهم بالشرف ذاته :-

"Quis est istorum qui non malit rempublicam Turbari quam comam suam?

Qui non sollicitior sit de capitis sui decore quam de salute?

Qui non comptior esse malit quam honestior? "(2)

" منْ مِن هؤلاء لن يفضل أن تسود الدولة الاضطرابات على ان يكون شعره مصففا ؟

ومن منهم لن يكون أكثر دفاعا عن شعر مصفف من دفاعه عن الأمن (السلامة)؟

ومن منهم لن يفضل أن يكون صاحب شعر مصفف على أن يكون حتى شريفا ؟ "

ومن خلال الفقرات السابقة التى تتناول تلك الفئة التى لاتهتم إلا باللذة أو التفاهة نلاحظ اهتمام سنيكا باستخدام مصطلحات فلسفية ذات صدى واسع فى مجالى السياسة والأخلاق ، فمما يدل على أن سنيكا يكتب والفلسفة فى ذهنه أنه اختار مصطلحات

1- Seneca, De Brevitate Vitae, XII, 2-3.
2- Ibid, XII, 3.

اللذة Voluptas والثروة Divitas والشرف Honestas لأن بعض الاتجاهات أرتأت أن من الممكن أن تكون هذه وسائل بلوغ السعادة وكانت الابيقورية تعول فى ذلك على اللذة بالأخص. وفى هذه النقطة بالذات ربما يكون سنيكا متأثرا بأرسطو لأن أرسطو كان قد سبقه فى دحض النظرية التى تقول أن اللذة هى مصدر للسعادة لأنها مؤقته ، والتى تقول أن الثروة هى مصدرها لأنها عرضة للزوال فى أى وقت والتى ترى المناصب هى مصدر السعادة لأن المناصب كما تمنح تنتزع. وكان أرسطيا عندما رأى أن إتباع الحكمة أو تحصيل المعارف المتنوعة هى المصدر الوحيد الحقيقى للسعادة. وعندما تناول سنيكا بالنقد والسخرية تلك الفئة التى تبدد أوقاتا طويلة فى التفاهات نلاحظ اهتمامه بالسياسة من استخدامه لمصطلحات مثل " الدولة " respublica والسلامة (الأمان) salus والواجب الأخلاقى honestas. إن بعض الناس يعنيهم أن تكون شعورهم مصففة يشملها النظام أكثر مما يعنيهم نظام الدولة نفسها ويؤثرون تصفيف شعورهم على توفير الأمان فى الدولة أو أداء الواجب الأخلاقى ، بينما–وحسبما تدعو إليه الرواقية التى كان سنيكا أحد روادها يحب أن يشترك كل الناس فى العمل السياسى ويتحلون بالصبر والعزيمة فى هذا المجال لا أن ينصرفون إلى الاهتمام بأنفسهم دون النظر إلى الدولة.

ومن الأمثلة الأخرى على الفئة التى تهدر العمر فى أمور تافهة يذكر سنيكا هؤلاء الذين يبددون أوقاتهم فى الاعداد والترتيب للحفلات والموائد يراجعون فحص الأوانى الفضية ويدربون الخدم بالساعات ويشتركون فى الإشراف بأنفسهم على كل مقعد فى المائدة ، وكذلك الذين يستهلكون ساعات طويلة من العمر يلعبون الورق وما شابه ذلك ، وأيضا الذين يقضون أوقاتا طويلة يتراقصون على أنغام الموسيقى وشوارع المدينة لا تخلوا منهم. (١)

1- Seneca, De Brevitate Vitae, XII, 3.

ومن هؤلاء الذين يرفض سنيكا اهتمامهم بالأمور التافهة بعض المشتغلين بالأدب Litterati وهم مجموعة من النقاد وهبوا أنفسهم فقط لهدم أجمل القطع الأدبية ولا يعنون فى الواقع لا بالفكر ولا الأسلوب بل بأمور لا طائل من ورائها ويرى سنيكا أن هذا التقليد الذى لا يعنى إلا بالأمور السطحية وحدها إنما جاء من اليونان إلى روما :

Graecorum iste moribus fuit quaerere, quem numerum Ulixes remigum habuisset, prior scripta esset Ilias an Odyssia, praeterea an eiusdem essent auctoris, alia deinceps huius notae ..... (1)

كانت للأغريق عادة " غير طيبة " وهى أن يسألوا (يناقشوا) عدد البحارة الذين كانوا بصحبة أوديسيوس. وهل الالياذة أُلفت قبل الاوديسيا وهل ألفهما شاعر واحد وموضوعات أخرى من هذا القبيل.

ومرة ثانية يرى سنيكا أن أفضل طريقة يمكن لإنسان أن يقضى بها الفراغ Otium هو أن يلجأ إلى الفلسفة. فلن ينعم بفراغ إلا من يتفرغ للحكمة ولن يحيا حياة حقيقية إلا من يسعى إليها ويستريح بها وهذه كلمات سنيكا التى تدل صراحة على مبدأه فى هذا الشأن :

Soli omnium otiosi sunt qui sapientiae vacant, soli vivunt(2)

" من بين كل الناس لا ينعم بالفراغ إلا هؤلاء الذين يتفرغون للحكمة.. فهم وحدهم الذين يحيون (حياة حقيقية) "

1- Seneca, De Brevitate Vitate, XIII, 2.
2- Ibid, XIV, 1.

كما أن الفراغ لا يعنى أن يستلقى المرء على أريكة ويصدر تعليماته وأوامره إلى الخدم ليؤدون له كل ما يريد أو أن يفرغ ذهنه من كل شئ فلا يتذكر شيئا ويعتمد على من يخبره بموعد تناول الطعام أو الإغتسال وما شابه ذلك. وفى هذا المعنى يروى سنيكا قصة رجل من هذه الفئة المدللة كان يخرج من الحمام محمولا إلى أن يوضع على اريكته فيسأل من حوله : " هل جلست الآن ؟ " Iam sedeo ? . ليس هذا هو الفراغ الذى يجب أن ينشده الانسان ، وهذا الرجل الذى يحكى عنه سنيكا مادام لا يعرف إذا كان قد جلس أم لا فلابد انه لا يعرف إذا كان حيا يرزق أم لا وإذا كان مستمتعا بالفراغ :- أنه لا يدرك فى الواقع معنى الفراغ وهذا ما يعبر عنه التساؤل التالى لسنيكا :-

Hunc tu ignorantem, an sedeat, putas scire an vivat, an videat an otiosus sit ? (1)

أى :-

" هل تعتقد أن هذا الرجل الذى لا يدرى ما إذا كان يجلس ام لا يمكن أن يدرى إذا كان حيا يرزق أو أن له عينين يرى بهما أو أنه يستمتع بالفراغ ؟ "

وهكذا نلاحظ أن سنيكا فى كتابه عن " قصر الحياة " يكشف لنا عن فئة تلو الأخرى ليس بمقدورها أن تنعم بالفراغ الحقيقى لأنها لا تعرف القيمة الحقيقية للفراغ. ولكن سنيكا يظل يضيف أعدادا أخرى من البشر حتى لنستشعر أن أفراد المجتمع جميعهم لا يدركون ما هو الفراغ وما هى قيمته. لكنه فى الواقع يستثنى وبوضوح الحكيم sapiens متبنياً فى ذلك المبدأ الرواقى الذى يقول أن الحكيم هو الوحيد الذى ينعم بالحرية وأنه الوحيد الذى يشعر بالغنى :-

- Solum sapientem esse liberum ..... (٢)
- Solum sapientem esse divitem ..... (٣)

1- Seneca, De Brevitate Vitae, XII, 7.
2- Cicero, Paradoxa Stoicorum V.
3- Ibid VI.

و يضيف سنيكا أن الحكيم وحده هو الذى ينعم بالفراغ وبلوغ السكينة Otiosus (١) وفى مقابل الأغلبية التى تبدد اعمارها فى أمور تافهة توجد اقلية تخصص أوقاتها للفلسفة. والذين ينتمون إلى هذه الأقلية هم وحدهم الذين ينجحون فى الإستمتاع بالفراغ لأنهم يقضونه بين الدراسات والتأمل ، ومن ثم تصير أعمارهم طويلة لأنهم درسوا وتأملوا أفكار العظماء من الحكماء السابقين على مر العصور ، فإذا أضيف إلى أعمارهم الحقيقية ما يقضون من أوقات مع حكمة السابقين تصبح أعمارهم طويلة ومديدة بطبيعة الحال. إنهم قادرون إذن على أن يجعلوا العمر مديداً طالما يرجعون قرونا ليتعلموا طرق التفكير التى سبقتهم. وهذا المعنى هو ما يعبر عنه سنيكا فى جملته التالية :

" Longam illi (sapienti) vitam facit omnium temporum in unum conlatio "(٢)

أى :-

" دمج العصور كلها فى عصر واحد يجعل حياة " الحكيم " طويلة "

هذه هى دعوة سنيكا التى يوجهها إلى الناس حتى لا يدعون أن الحياة قصيرة ، إنها الدعوة إلى الفلسفة فهذا هو الطريق الوحيد الذى يجعل الحياة خالدة (٣)، وتعظم الحياة بمقدار مايتصل الانسان فيها بأفكار الحكماء وبمقدار ما يساهم به فى وصل هذه الافكار بعصره. وعلى هذا الأساس وحده تكون النتيجة أن الحياة طويلة.

يعيب دف Duff على سنيكا أنه يحاول فى مؤلفه " عن قصر الحياة " أن يكون ماهرا أكثر مما ينبغى ورغم أنه يصف هذا العمل بالطرافة الشديدة إلا أنه يصفه أيضا بالضحالة ، وهذا نوع من النقد الأدبى الذى لا محل هنا للأسهاب فى مناقشته. ولكن عندما يضيف دف Duff أنه أولى بسنيكا أن يفعل ما يعظ به الآخرين (٤)، ويقصد الاعتزال فهذا القول يستوجب الرد والتعليق فى نقطتين :

1- Seneca, De Brevitate Vitae, XIV, 1.
2- Ibid XV, 5.
3- Ibid XV, 4 : " Haec una ratio est extendendae mortalitatis "
4- Duff J.D., " L'Annaei Senecae Dialogorum libri X XI XII. Three dialogues of seneca, Cambridge 1915, pp. 17-18.

الأولى :-

أن سنيكا لا يدعو الناس جميعا إلى اعتزال وظائفهم ومناصبهم من أجل الفلسفة ، بل يرى أنه طالما كانت هناك شرائح كبيرة من المجتمع تبدد العمر إما منهمكة فى العمل ولا تكتفى بشئ ولا تعرف متى وأين تتوقف لألتقاط الأنفاس ثم تشكو بعد ذلك من أنها لا تعيش ، وإما ساعية إلى لذة ترتع فيها دون شبع ، وإما عاشقة لأمور أقل ما توصف به التفاهة ، فمن باب أولى أن تفطن هذه الشرائح إلى أن أجدى استخدام للفراغ Otium هو الفلسفة التى كانت أنذاك هى الفلسفة والعلم معا.

أما النقطة الثانية :-

فلماذا يعتزل سنيكا ؟ أنه قادر على تخصيص أوقات طويلة من حياته للقراءة ، ومما لا شك فيه أنه قرأ الفلسفة القديمة (١) فأمتد بعمره – حسب فلسفته فى هذا الكتاب–إلى قرون طويلة ماضية أضافت إلى عمره فصار طويلا ، هذا إلى جانب أنه لم يكتف بهذا بل ساهم هو نفسه بالكتابة والتأليف فى مشوار الحكمة حتى لا تكون حياته طويلة فحسب بل تكون أيضا خالدة.

وأخيرا فمما لا شك فيه أن سنيكا أستطاع أن يمزج باقتدار الهزل بالجد فى هذا الكتاب ويبرهن على تمكنه من فن Spoudaiogeloion وريادته له ، وهو فن السخرية التى تثير الضحك بينما بداخل نفس المؤلف رؤية جادة للموضوع الذى يتاقشه.(٢) وبالفعل فقد اشبعنا سنيكا ضحكا بسخريته من الشرائح التى ضرب عليها الأمثلة باشخاص حقيقيين من مختلف طبقات المجتمع ولكن غايته لم تتوقف عند هذا الحد بل إمتدت إلى رؤية جادة مؤداها الدعوة إلى الحكمة ،بل امتدت إلى رؤية جادة مؤداها الدعوة إلى الحكمة.

1- Seneca, De Brevitate Vitae, XIV, 2.
2- Motto A. L. and Clark J., "Sotire in Saenca's De Brevitate Vitae " , L'Antiquite' classique, Bruxelles, 1994 p. 170.

مصادر البحث ومراجعه

المصادر

- Aristotle, Nichomachian Ethics (Loeb).
- Cicero, Stoicorum Paradoxa (Loeb).
- Seneca, De Brevitate Vitae (Loeb).
- Plato, Euthydemus (Loeb).

المراجع والدوريات

- Duff J. D., L'Annaei Senecae Dialogorum Libri X, XI, XII, Three dialogues of Seneca, Cambridge 1915.
- Duff J. W., Literary History of Rome in the silver age, London 1966.
- Grimal P., Introduction to L'Annaei Senecae De Brevitate Vitae, Paris 1959
- Motto A.L. and Clark J., " Satire in Seneca's De Brevitate Vitae (L'Antiquite' Classique, Bruxelles, 1994).